



سُورَةُ الْحَقَّافِ



حِينَ تَمُرُّ الرِّيحُ عَلَى آثَارِ الْمَتَكَبِّرِينَ وَيَبْقَى الْحَقُّ



تَأْلِيف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ



سُورَةُ الْأَحْقَافِ

حِينَ تَمُرُّ الرِّيحُ عَلَى أَثَارِ الْمُتَكَبِّرِينَ وَيَبْقَى الْحَقُّ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

الرحلة الأولى: بين كتابٍ نازل، وعالمٍ زائل

اقترب قليلاً. دع ضجيج العالم خلفك هذه المرة. فإن سورة الأحقاف لا تبدأ بكلام الإنسان عن الله، بل بكلام الله إلى الإنسان. لا تبدأ بالأرض، ولا بالممالك، ولا بالتاريخ، ولا يقوم عادٍ الذين سيجيء ذكرهم في أعماق الطريق. إنها تبدأ من فوق. من حيث يأتي اليقين.

﴿حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

وكان أول ما تريد السورة أن تصلحه في قلبك هو جهة النظر. قبل أن تسألك: ماذا ترى؟ تقول لك: اعرف أولاً من أين جاء النور الذي ترى به. هذا الكتاب ليس ثمرة عقل بشريّ بلغ ذروة العبقرية. ولا تجربة روحية لرجل صالح. ولا حكمة تراكت عبر الأجيال. إنه:

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾.

وهذه وحدها تكفي لتغيير علاقتك بكل كلمة فيه. فأنت حين تقرأ كلام البشر تستطيع أن تناقش صاحب الكلام من خارج منطقته. أما حين تعرف أنك تقف أمام تنزيل من الله، فإن السؤال يتغير: لم يعد: هل يعجبني هذا الكلام؟ بل: هل فهمت ماذا يريد الله مني؟ ثم انظر إلى الاسمين اللذين جاءت بهما الآية:

﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

العزیز... فلا شيء يعجزه. والحكيم... فلا شيء يضعه في غير موضعه. قوة لا يشوبها العبث. وحكمة لا يشوبها العجز. وهكذا تستقبل السورة بقية مشاهدتها. فحين تقرأ بعد قليل عن السماء والأرض، وعن الآخرة، وعن الوالدين، وعن عاد، وعن الریح التي اجتاحت حضارة كاملة، تذكر: الذي يدبر هذا كله عزيز حكيم. فليس التاريخ خارج قبضته. ولا حياتك. ولا ما تحشاه. ولا ما فقدته. ولا ذلك الباب المغلق الذي تقف أمامه متسائلاً: لماذا؟ قد تعجز أنت عن رؤية الحكمة. لكن العجز عن رؤيتها لا يعني غيابها.

الكون ليس بناءً مهجوراً

ثم يأخذ القرآن عينيك من الكتاب إلى الكون:

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا
أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾.

قف عند:

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

ما حولك ليس عبثاً. السماء ليست سقفاً جميلاً فحسب. والأرض ليست مسرحاً يتزاحم
عليه البشر قليلاً ثم ينطفئ كل شيء.. والإنسان ليس كائناً وُلد صدفةً، وأحب صدفةً، وتأم
صدفةً، ثم دفنته الأرض وانتهت القصة.

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

هناك معنى. هناك مقصد. هناك ميزان. وهناك نهاية تليق ببداية جاءت من الله. ثم تضيف
الآية:

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

يا لها من كلمة تقلع وهم الخلود من جذوره. كل شيء هنا مؤقت. الدول. الأجساد.
القصور. المناصب. الحروب. الأحزان. حتى السماء التي تبدو لك أثبت الأشياء لها أجل.
وكان السورة تهمس لك: لا تتعلق بشدة بما كُتب عليه الرحيل. ولا تخف كثيراً مما كُتب
عليه الزوال. لكن الإنسان يفعل شيئاً عجيباً: يرى الموت كل يوم، ومع ذلك يعيش وكأنه
استثناء. يرى الأشياء تسير إلى نهاياتها، ثم يبني حياته كلها على إنكار النهاية. ولهذا لم تقل
الآية إنهم لم يسمعوا الإنذار. قالت:

﴿مُّعْرِضُونَ﴾.

والإعراض غير الجهل. الجاهل قد يبحث. أما المعرض فقد وصلته الإشارة، ثم أدار
وجهه. وهنا واحدة من أخطر أمراض الإنسان المعاصر: ليست مشكلته دائماً أن الأدلة
قليلة. قد تكون مشكلته أن الضجيج كثير. يمتلئ يومه بكل شيء حتى لا يبقى فيه متسع
للسؤال الكبير: إلى أين أمضي؟

حين يُعبد ما لا يسمع

ثم تهبط السورة إلى الأرض، إلى أكثر أوهام البشرِ قدماً: أن يمنح الإنسان شيئاً من خلق
الله مقاماً لا يليق إلا بالله.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اتَّخَذُوا مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْثَارًا مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

إنه سؤال يهدم الوهم من أساسه: ماذا خلقوا؟ والقرآن كثيراً ما يعيد الإنسان إلى هذه البساطة المدهشة... قبل الجدل الطويل... قبل الفلسفات... قبل الموروثات... انظر إلى الذي نتعلق به. هل خلق شيئاً؟ هل يملك شيئاً استقلالاً؟ هل له في السماوات نصيب؟ وإن لم يكن لديه شيء من ذلك: فمن أين جاءه الحق في أن يتعلق قلبك به كما يتعلق بالله؟ والآية لا تكتفي بمسألة الوجود، بل تسأل عن الدليل:

﴿اتَّخَذُوا مِنْ قَبْلِهِ أَوْثَارًا مِنْ عِلْمٍ﴾.

وكان القرآن يعلم قلب المؤمن ألا يكون قلباً ساذجاً. الإيمان ليس تعطيلًا للعقل. بل تحريراً له من الخرافة. ليس كل ما ورثناه حقاً. ولا كل ما قالته الجماهير حقيقة. ولا كل فكرة تكررت كثيراً اكتسبت برهاناً. في عالمنا اليوم يمكن للكذبة أن تكرر ملايين المرات. يمكن للصورة أن تصنع وهمًا. وللشهرة أن تمنح الإنسان سلطةً على القلوب لا يستحقها. لكن القرآن يعيدك إلى السؤال الصلب: أين البرهان؟

المأساة: أن تنادي من لا يسمعك

ثم تأتي آية من أشد الآيات تصويراً لوحدة الإنسان حين يضع قلبه في المكان الخطأ:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾.

تأمل المفارقة. إنسان ينادي بكل روحه... والمنادي لا يسمع. إنسان يعلق عليه رجاءه... وهو عنه غافل. إنسان يبني عليه أمّنه... وهو لا يملك له شيئاً. وهذا المعنى أوسع من صورة الوثن الحجري. فكم من قلب في الحياة الحديثة يصرخ نحو أشياء لا تستطيع إنقاذه. المال. المكانة. الجمهور. الحبيب. الوظيفة. الزعيم. الصورة الاجتماعية. يقول القلب في سره: إذا حصلت على هذا فأسأطمئن. ثم يحصل عليه... ولا يطمئن. لأن الأشياء خلقت لتكون في اليد. فإذا وضعها في موضع الإله داخل القلب، عذبتك.

كل ما سوى الله محدود. وحين تطلب من المحدود ما لا يعطيه إلا المطلق، يبدأ الشقاء.

وما نعبده اليوم قد يتبرأ منا غداً

ثم يتحول المشهد فجأة إلى القيامة:

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

يا لبرودة النهاية. تعلق طويل في الدنيا، ثم عداوة في الآخرة. كل رابطة لم تكن على الحق تحمل في داخلها إمكانية الانقلاب. فالذي أطاع إنساناً في معصية الله قد يلعنه يوم القيامة. والذي تنازل عن الحق ليحافظ على رضى الناس سيكتشف أن هؤلاء الناس لا يستطيعون يومئذ أن يحملوا عنه حسرة واحدة. ولهذا فإن التوحيد ليس مسألة عقدية مجردة. إنه تحرير للقلب. أن يكون فيك موضع لا يدخله إلا الله. لا سلطان فيه لجمهور. ولا لمدح. ولا لدم. ولا لخوف. ولا لطمع. وحين يستقر هذا المعنى، تبدأ لأول مرة في امتلاك نفسك.

حين يصبح القرآن هو المتهم

ثم تنتقل السورة إلى صورة أخرى من صور الإعراض:

﴿وَإِذَا ثُلِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

لاحظ:

﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾.

الحق هو الذي جاءهم. لم يكونوا هم الباحثين عنه. الله أرسل إليهم النور حتى أبوابهم. لكن المشكلة أن الإنسان حين يقرر مسبقاً ألا يتغير، يستطيع أن يجد لكل حقيقة اسماً يهرب به منها. يسمى الوحي سحراً، ويسمى النصيحة تضيقاً، ويسمى الهوى حرية. ويسمى التنازل حكمة، ويسمى الخوف واقعية. إن تغيير الأسماء لا يغير حقائق الأشياء. يمكنك أن تمنح الظلام ألف اسم جميل. لكنه سيظل ظلاماً.

هل افتراه؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

هنا يتجلى يقين النبوة. اتهام ثقيل: لقد اختلق محمد هذا القرآن. يأتي الجواب لا مرتبكاً، ولا متوسلاً إلى الناس أن يصدقوه:

﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

ما أعظم الإنسان حين يكفيه علم الله به. فكثير من تعب الحياة يأتي من رغبتنا في أن يفهمنا الجميع. أن يعرفوا نياتنا. أن يعترفوا بصدقنا. أن يعتذروا عن سوء ظنهم. لكن هناك

مرتبة من الطمأنينة يقول فيها القلب: الله يعلم. وتنتهي القضية داخلك. لا لأن الاتهام أصبح صغيراً. بل لأن الشاهد أصبح عظيماً. ثم، في وسط هذا الخصام، تأتي الخاتمة: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

كأن باب الرجوع لا يُغلق حتى في وجه من اتهم الرسول بالافتراء. وهذه من عجائب الرحمة في القرآن: يعرض الحجة بقوة. ويهدم الباطل. ثم يترك باباً مفتوحاً في آخر الجدار: إن رجعت... فالله غفور رحيم.

أنا لست أول الطريق

ثم يقول النبي ﷺ:

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.
﴿مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾.

هذا الطريق قديم. قبلك يا محمد مشى فيه نوح. وإبراهيم. وموسى. وعيسى. وقوافل طويلة من الأنبياء. فإذا أوديت، فلست أول من أودى. وإذا كُذِّبت، فلست أول من كُذِّب. وإذا بدا لك أن صوت الباطل أعلى، فقد بدا ذلك لأنبياء قبلك. إن الإيمان يخفف عن الإنسان وحشة الطريق حين يربطه بسلسلة عظيمة ممتدة عبر التاريخ. أنت لست حادثة منفردة. كل من تمسك بالحق في زمن الفتنة جزء من قصة أقدم منه. ثم تأتي العبارة التي تختصر مقام العبودية كله:

﴿إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾.

لا أخلق الطريق. أتبع الطريق. لا أعدّل الحقيقة حتى ترضى عنها الجماهير. أتبع ما يوحي إلي. وهنا فرق عظيم بين الإنسان الرباني والإنسان الذي يعبد اللحظة. الأول يسأل: ما الحق؟ والثاني يسأل: ما الذي سيقبله الناس؟

الشاهد الذي عرف الرائحة

ثم تقول السورة:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَّا نَاسِكُكُمْ فَلَا يَصْلَحُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ الْعَلِيمُ﴾.
﴿وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

المشكلة لم تعد في غياب الشواهد. بل في كلمة واحدة:
﴿وَأَسْتَكْبِرْتُمْ﴾.

وهنا تضع السورة إصبعها على جرح عميق جداً في النفس الإنسانية. قد يعرف الإنسان الحقيقة... ولا يتبعها. ليس لأنه لم يفهم. بل لأنها ستطالبه بأن يتنازل عن شيء يحبه: مكانة. زعامة. صورة. مصلحة. رأي قديم. اعتراف بأنه كان مخطئاً. ولهذا يكون الكبر أحياناً أخطر من الجهل. الجاهل يمكن تعليمه. أما المستكبر فيحتاج أولاً أن ينزل عن عرشه الداخلي. وكـم من حقيقة تبقى واقفةً خارج القلب سنوات، لا ينقصها الدليل... ولكن ينقص صاحبها أن يقول: كنت مخطئاً. ومن هنا يبدأ الهدى.

ليس دائماً من كثرة المعلومات. بل أحياناً من لحظة تواضع.

وهكذا تكون سورة الأحقاف قد وضعت لنا في مطلعها الأساسات الكبرى للرحلة: كُتِبَ نازل من الله. كَوْنُ خُلُقٍ بالحق. أَجَلٌ ينتظر كل شيء. آلهة عاجزة لا تسمع. قيامة تنكشف فيها العلاقات الزائفة. وحي يهتمه المعرضون. ورسول لا يقول إلا: ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾. ثم بدأت تكشف لنا العائق الأخطر: ليس نقص البرهان دائماً. بل الكبر أمام البرهان. ومن هنا ستنتقل السورة بنا إلى مشهد بالغ الإنسانية: إلى إنسان يولد ضعيفاً، وتحمله أمه كرهاً، وتضعه كرهاً، ثم يمضي به العمر حتى يبلغ أشده ويبلغ الأربعين...

وهناك، وسط صخب السورة وحجاجها، سنسمع دعاءً من أصفى أدعية القرآن:
﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ...﴾.

وكان السورة ستقول لنا: بعد أن تعرف الحق في السماء... تعال الآن لنرى أثره في أخصى دوائر حياتك: في بيتك، وأهلك، وعمرك، وذريتك، ومالك.

ثم تكشف السورة لونا آخر من ألوان الاستكبار، لونا قد لا يبدو في ظاهره عنيفاً، لكنه شديد الخفاء في النفس؛ ذلك أن الإنسان قد يرفض الحق لا لأنه تبين له بطلانه، بل لأنه رأى أناساً لا يعظمهم قد سبقوه إليه:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

تأمل هذه النفس وهي تبحث عن مقياس للحقيقة، فلا تنظر إلى الحقيقة نفسها، بل تنظر إلى الذين حملوها. كأنها تقول: لو كان هذا حقاً، لكنا نحن أولى به من هؤلاء. وهنا تحول المكانة الاجتماعية إلى حجاب، ويحول الشعور بالتفوق إلى عَمَى؛ لأن القلب لم يعد يسأل: هل هذا من عند الله؟ بل صار يسأل: كيف يسبقني إليه فلان؟ وقد يتكرر هذا المرض في كل زمان، حين يستثقل الإنسان أن يتعلم ممن يراه دونه، أو أن يعترف بصواب خصم، أو أن يرجع عن رأي سبق أن بنى عليه صورته أمام الناس. وربما قامت الحجة أمامه واضحة، لكنه يؤثر أن يخسر الحقيقة على أن يخسر شعوره بالتفوق.

ولهذا جاءت الجملة القرآنية كاشفةً لطريقة النفس في حماية كبريائها: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾. لم تقل الآية: وحين ثبت لديهم أنه إفك. بل لما لم يهتدوا به جعلوا عدم اهتمامهم دليلاً على بطلانه! وهذه مفارقة تهز القلب؛ فالإنسان قد يجعل قصوره حجة على الحقيقة، وقد يتهم النور لأنه لم يفتح عينيه. كأن المريض يقول: ما دام الدواء لم يعجبني فلا بد أنه باطل، وكأن التائه يقول: ما دمت لم أعرف الطريق فلا بد أنه غير موجود.

كم نحتاج إلى أن نحرس قلوبنا من هذا النوع من الغرور. ليست كل حقيقة لا نفهمها باطلة، وليس كل معنى لا ينسجم مع أهوائنا خطأ، وليس تأخرنا عن إدراك شيء حجة عليه. أحياناً تكون المشكلة في الزجاج الذي ننظر من خلاله، لا في الضوء الذي يقع عليه.

كَتَابُ يَصِدِّقُ كِتَابًا... والتبع واحد

ثم تعيد السورة الوحي إلى سياقه الممتد في تاريخ النبوات:

﴿وَمَنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابُ مُصَدِّقٍ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾.

ليست الرسالة الحمديدية جزيرة مقطوعة عن تاريخ السماء. قبل هذا القرآن كتاب موسى، وكان ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾، ثم جاء القرآن ﴿مُصَدِّقًا﴾. تتعدد الأزمنة، ويتعدد الرسل، وتتعدد الأمم، لكن المصدر واحد، والنداء في أصله واحد: اعرف ربك، واعرف موقعك من هذا الوجود، ولا تجعل الدنيا نهاية القصة. وما أجمل اجتماع الكلمتين في وصف كتاب موسى: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾. فالكتاب إمام لأنه يهدي، ورحمة لأن الهداية نفسها رحمة. نحن أحياناً نتخيل أن الرحمة أن يُترك الإنسان لما يشاء، لكن من أعظم الرحمة أن يُقال له أين الطريق قبل أن يهلك في الصحراء. ومن أعظم الرحمة أن يأتيك الوحي فيخبرك أن بعض ما تشتهيته يؤذيكَ، وأن بعض ما تكرهه ينقذك، وأن الموت ليس النهاية، وأنتك لست متروكاً لتجاربك القصيرة كي تكتشف وحدك قوانين النجاة.

ثم قال: ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾. هذا الحق العظيم نزل في لغة بشرية يسمعونها الناس، ويتذوقون ألفاظها، ويفهمون جملها، ويحفظها الصغير والكبير. يا لها من رحمة أن يقترب الخطاب الإلهي من الإنسان حتى يصير آيات تثلي على اللسان، وتدخل من السمع إلى القلب. ليست المسألة ألغازاً مستغلقة لا يبلغها إلا خواص الناس، بل كتاب يخاطب الإنسان، يحاوره، وينذره، ويبشره. وانظر إلى جناحي الرسالة: ﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾. إنذار وبشرى. خوف ورجاء. عدل ورحمة. فالقرآن لا يصنع قلباً مخدراً لا يخشى شيئاً، ولا قلباً مذعوراً لا يرجو شيئاً، بل يبني الإنسان بين الهيبة والأنس، بين الخوف الذي يمنعه من السقوط، والرجاء الذي يمنعه من اليأس.

كلمتان تختصران رحلة العمر

ثم تأتي آية كأنها جزيرة من السكينة وسط جدال المشركين وصخب المكذبين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ما أقصر الطريق في العبارة، وما أطوله في الحياة: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾. أن تقول: ربنا الله، أمر تستطيع أن تنطقه في ثانية. أما أن تعيش مقتضى هذه الكلمة عشرين سنة، وأربعين سنة، وستين سنة، في الرخاء والشدة، وفي الصحة والمرض، وفي الخلوة والجلوة، وعند إقبال الدنيا وإدبارها، فهذا هو الامتحان. والقرآن لم يقل: قالوا ربنا الله ثم لم يخطئوا. لم يقل: ثم صاروا ملائكة. قال: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾. والاستقامة حركة عمر كامل باتجاه الله، قد يضعف السائر، لكنه لا يغير القبلة. قد يتعثّر، لكنه يقوم. قد تبكيه نفسه، لكنه لا يصلحها على البعد. الاستقامة ليست أن تكون بلا ضعف، بل ألا تجعل ضعفك وطناً.

وفي لفظة ﴿ثُمَّ﴾ شيء يستحق الوقوف طويلاً؛ فكأن بين إعلان الإيمان وتحوله إلى حياة مسافة تحتاج إلى صبر. كم يسهل الحماس في البدايات، وكم يصعب الثبات حين تهدأ حرارة البداية وتجيء الأيام العادية. العبرة ليست دائماً بما يشتعل في القلب لحظة، بل بما يبقى فيه بعد أعوام. ثم تأتي الجائزة النفسية قبل جائزة الجنة:

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الخوف يتجه غالباً إلى المستقبل، والحزن يلتفت غالباً إلى الماضي. فكأن الله يحيط المؤمن المستقيم من جهتي الزمن: لا مستقبل يفرغه عند الله، ولا ماضٍ يبتلعه بالحسرة. وهذه منزلة عظيمة؛ لأن كثيراً من حياة الإنسان موزع بين شيء يخاف وقوعه وشيء يحزن على وقوعه. أما القلب الذي عرف ربه واستقام له، فإنه يتعلم أن يضع ما مضى في يد الرحمة، وما سيأتي في يد الحكمة، ثم يعيش يومه عبداً لله.

الجنة ليست أمنية عابرة

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.

ليست زيارة. ولا ضيافة تنتهي. إنها صحبة ومقام، ثم جاء ما يقطع آخر احتمال للفراق: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾. وفي الدنيا لا توجد نعمة تخلو من خوف النهاية. كل جميل هنا يمر عليه ظل الفراق: صحة يمكن أن تمرض، وشباب يمكن أن يذبل، وبيت يمكن أن يُترك، وحبيب يمكن أن يرحل. حتى أجمل لحظات الدنيا يمر في أعماقها إحساس خافت بأنها لا تبقى. أما الجنة، فنعيمها لا يفسده انتظار النهاية؛ لأن النهاية نفسها ألغيت. ثم قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وهنا تُعاد للعمل قيمته. الحياة ليست فراغاً بين ميلاد وموت، ولا سلسلة أيام تتشابه ثم تختفي. كل سجدة لها وزن، وكل صدق له وزن، وكل مقاومة لهوى النفس لها وزن، وكل إحسان خفي لم يره الناس محفوظ. قد ينسى الإنسان عملاً صالحاً صنعه قبل أعوام، لكن الله لا ينساه.

ومن السماء... إلى حضن الأم

وبعد الكلام عن التوحيد والوحي والاستقامة والجنة، يحدث انتقال بالغ الرقة. لا يأخذك القرآن إلى ميدان جديد بعيد، بل يعيدك إلى أول مكان عرف فيه جسدك معنى الرحمة: إلى أمك وأبيك.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

عجيب هذا القرآن. قبل لحظات كان يحدثك عن السماوات والأرض، وعن تاريخ النبوة، وعن الجنة والخلود، ثم يأخذك إلى جسد أمٍ يحمل طفلاً ﴿كُرْهًا﴾، ثم يضعه ﴿كُرْهًا﴾. كأن العقيدة التي لا تجعلك أكثر وفاءً لمن حملوك صغيراً لم تبلغ بعد أعماقها فيك. إن كلمة ﴿كُرْهًا﴾ تكرر مرتين، وكأن القرآن لا يريد أن يمر ألم الأم سريعاً في الذاكرة. حملته وهي تعب، ووضعته وهي تألم، والطفل في الحالتين لا يعرف شيئاً. لم يقل لها شكراً. لم يشعر بثقل جسده عليها. لم يعرف الليالي التي تغيّر فيها نومها، ولا الألم الذي مر بها ليأتي هو إلى الدنيا. لقد بدأ الإنسان حياته مديناً قبل أن يعرف معنى الدين.

ثم: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. زمن طويل من العناية يختصره القرآن في كلمات، لكن خلف الكلمات ليالٍ من التعب، وخوف، وانتظار، وإطعام، وسهر. وكم يصبح الإنسان غربياً حين يكبر، فيرى نفسه مستقلاً، وينسى أن استقلاله الحالي قام فوق أعوام كان فيها عاجزاً عن أن يقلب جسده وحده.

الأربعون: حين يلتفت الإنسان إلى الوراء والأمام

ثم تقف الآية عند محطة عمرية لافتة:

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.

الأربعون هنا ليست رقماً عابراً في سياق الآية. إنها صورة لنضج الإنسان حين يقف في منتصف الطريق تقريباً؛ وراءه طفولة وشباب وتجارب، وأمامه بقية عمر لا يعرف مقدارها. في الشباب قد ينظر الإنسان إلى الأمام فقط، يريد أن يصل، وأن يملك، وأن يثبت نفسه. لكن حين تتضح التجربة يبدأ بالنظر إلى الخلف أيضاً: كم نعمة مرت بي؟ كم يداً حملتني؟ كم سترأ أحاطني؟ كم باباً فتحه الله ولم أكن أراه؟ وهنا، عند النضج، لا يطلب المؤمن مزيداً من الدنيا أولاً. لا يقول: رب زدني مالاً، ولا شهرة، ولا عمراً، بل يقول:

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾.

يا لجمال الطلب. لم يقل فقط: رب إني أشكرك. بل يسأل الله أن يعينه على الشكر؛ لأنه أدرك أن الشكر نفسه نعمة تحتاج إلى عون. كم من نعم تحيط بنا ولا نشعر بها، وكم من

أناس يملكون النعمة ولا يملكون قلباً يراها. وربما كان إدراك النعمة أعظم من النعمة ذاتها؛ لأن الشيء الذي لا تشعر به لا يصنع في روحك شيئاً. ثم لا ينظر إلى نعمته منفرداً: ﴿الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾.

هكذا تسع ذاكرة الشكر. إنه لا يرى نفسه بداية الحكاية، بل حلقة في سلسلة من النعم. هناك فضل سبق وجوده، ورحمة جرت في أسرته قبل مولده، وأبواب فتحها الله لوالديه فامتد أثرها إليه. المؤمن الناضج لا يعيش مقطوع الجذور.

ليس كل صالح مرضياً إلا إذا رضي الله عنه
ثم يرتفع الدعاء:

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾.

ولم يقل فقط: وأن أعمل صالحاً. بل: ﴿تَرْضَاهُ﴾. وهذه إضافة تهذب حتى رغبتنا في العمل الصالح. فقد يعمل الإنسان عملاً يراه هو صالحاً، ويطلب به إعجاب الناس، أو يبيني به صورته، أو يخلط فيه لله حظاً ولنفسه حظوظاً. أما هذا الداعي فقد تجاوز سؤال: ماذا أعمل؟ إلى سؤال أعمق: ما الذي يرضيك عني يا رب؟ فليست القضية كثرة الحركة، بل صحة الوجهة. ليست أن تمتلئ أيامك بالأعمال فقط، بل أن يكون بينها عمل ينظر الله إليه فيرضاه. وكم يحتاج الإنسان المعاصر إلى هذه الوقفة، في زمن أصبحت فيه الحياة سباقاً في الإنجاز. الجميع يسأل: ماذا حققت؟ كم أنجزت؟ كم عرفك الناس؟ كم أصبح رصيدك؟ أما هذا الدعاء فيضع مقياساً آخر فوق جميع المقاييس: هل رضي الله؟

قد يكون عمل صغير في أعين الناس أثقل عند الله من مشروع ضخم يتحدث عنه المجالس. وقد تكون دمة في خلوة أصدق من خطبة سمعها الآلاف. حين يدخل الرضا الإلهي في المقياس تبدل أحجام الأشياء.

ثم يلتفت القلب إلى أبنائه

ولا يتوقف الدعاء عند النفس:

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾.

تأمل لفظة ﴿لي﴾. لم يقل فقط: أصح ذريتي، بل ﴿أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾؛ كأن صلاح الأبناء نعمة تعود على قلب الأب نفسه، وسكينة تمتد إليه، واستمرار للخير بعد أن يرحل. في أول الآية كان الإنسان ولداً يُحمل. وفي وسطها صار رجلاً بلغ الأربعين. وفي آخرها صار

أباً يخاف على ذريته. هذه حياة كاملة في آية واحدة. كان في البداية عاجزاً تحمله أمّه، ثم قوي حتى بلغ أشده، ثم اكتشف أن القوة لم تحرره من حاجته إلى الله؛ بل جعلته أشد شعوراً بها. لقد أصبح مسؤولاً عن جيل بعده، وفهم أن هناك أشياء لا يستطيع المال أن يضمنها، ولا التربة وحدها أن تخلقها، ولا الحراسة أن تحفظها: الهداية.

ولهذا عاد إلى الله:

﴿وَأَصْلَحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾.

يا رب، إن استطعت أن أطعمهم فلن أستطيع أن أخلق الإيمان في قلوبهم. وإن استطعت أن أعلمهم فلن أستطيع أن أفتح لهم أبواب الهداية. وإن استطعت أن أحي أجسادهم بعض الوقت، فلن أستطيع أن أكون معهم في كل فتنة. فأصلحهم أنت.

في الأربعين لا يقول: لقد وصلت

ثم يختم هذا الإنسان الناجح دعاءه بشيء مدهش:

﴿إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

بلغ أشده. وبلغ الأربعين. ونضج. وعرف النعمة. وأراد الصلاح. ومع ذلك لم يقل: أنا من الصالحين. بل قال:

﴿إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ﴾.

كأن النضج الحقيقي لا يصنع في الإنسان غروراً بما وصل إليه، بل يزيده معرفة بما فاتته. وكلما اتسعت بصيرته رأى عيوبه أكثر، ورأى فضل الله عليه أكثر، فاقترب بدل أن يتعالى. ومن أجمل ما في هذا الدعاء أنه يجمع الزمن كله: يشكر نعمة مضت، ويطلب عملاً صالحاً في الحاضر، ويسأل صلاح الذرية للمستقبل، ثم يربط ذلك كله بالتوبة والإسلام. الماضي شكر، والحاضر عمل، والمستقبل دعاء، والقلب بين ذلك كله عائد إلى الله. ما أروع أن يصل الإنسان إلى مرحلة من عمره فيكتشف أن أعظم إنجاز لم يكن بيتاً بناه، ولا مالاً جمعه، ولا اسماً صنعه، بل أن يستطيع أن يقول بقلب صادق:

﴿إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وحين تقابل السماء هذا الدعاء

ثم يجيء الجواب من الله:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

يا لرحمة التعبير: ﴿نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾، ثم ﴿وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾. فالعبد ليس صحيفة بيضاء لم يقع فيها خطأ. لقد عاش، وضعف، وتعثر، وربما ندم على صفحات من عمره؛ لكن القصة لا تنتهي عند السيئات إذا انتهى القلب إلى التوبة. وهذا هو الأمل الذي يحتاجه كل من يثقل عليه ماضيه. ليست التوبة محاولةً لمحو حقيقة أنك أخطأت، بل عبور من مرحلة يكون فيها الخطأ سلطاناً عليك إلى مرحلة يصبح فيها باباً إلى الانكسار لله. قد لا تستطيع أن تعيد الأمل، لكنك تستطيع أن تغير المعنى الذي سيخرج به الأمل معك إلى الله.

ثم يقول: ﴿وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾. وهل هناك أهدأ على القلب من أن يعلم أن ربه الذي يعلم السيئات كلها هو نفسه الذي وعد بالتجاوز عنها؟ البشر قد يحفظون عليك سقطة عشرين عاماً. قد تنوب أنت ويبقى بعض الناس يعرفونك بخطئك القديم. أما الله، فإذا صدقت في رجوعك إليه، فبابه ليس محكمة بشرية تلوك ماضيك إلى الأبد. والخاتمة: ﴿وَعَدَ الصَّادِقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

وعد من؟ من العزيز الحكيم. ولهذا لا ينبغي للمؤمن أن يتعامل مع الجنة وكأنها أمنية شعرية جميلة، بل بوصفها وعد الصادق. فالذي أخبرك أن السماوات والأرض خلقت بالحق هو الذي أخبرك أن الاستقامة لا تضيع، وأن البر لا يضيع، وأن تعب الأم لا يضيع، وأن التوبة لا تضيع، وأن العمل الصالح لا يضيع. لكن السورة، وهي تعرض هذه الصورة المضئية للإنسان بلغ الأربعين فالتفت إلى نعم الله وإلى والديه وذريته، ستضع بجوارها مباشرة صورة أخرى صادمة: ابن يسمع أبويه يدعوانه إلى الإيمان، فلا يرى في نداء الوالدين رحمة، بل يواجههما بالضجر والإنكار ويقول:

﴿أَفِ لِمَا أَعْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾.

وهكذا ستضع السورة أمامنا ييتين في بيت الإنسان: قلباً يبلغ النضج فيزداد شكراً، وقلباً يسمع نداء الرحمة فيزداد جحوداً. ومن هنا يبدأ مشهد بالغ الألم في علاقة الإيمان بالأجيال.

ثم تضع السورة إلى جوار صورة الإنسان الذي بلغ الأربعين ففاض قلبه شكراً وتوبةً وبراءً، صورةً مضادة تكاد تسمع فيها أنين بيت كامل:

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَهُي لَمَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

إنها ليست مناظرة فكرية باردة بين جيلين، بل مشهد إنساني موجد. أبوان يريان ابنهما يتجه إلى هاوية الإنكار، فلا يملكان له شيئاً إلا أن يستغيثا بالله. وتأمل الكلمة: ﴿يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾. لقد تجاوز الأمر عندهما مستوى النصيحة العادية؛ أصبح القلب في حالة استغاثة. إنهما يعرفان أن الهداية ليست كلمة تُدفع إلى القلب دفْعاً، وأن الأب مهما أحب ابنه لا يستطيع أن يفتح في صدره نافذة النور إن أغلقها هو. فيعود الوالدان إلى من يملك القلوب، ويقولان له: يا رب، أدركه.

وفي الطرف الآخر يأتي الجواب قاسياً: ﴿أَفِ لَكَ﴾. يا له من فرق بين الابن السابق الذي تذكر نعمة الله عليه وعلى والديه، وبين هذا الذي يواجه والديه بالتأفف حين يدعوانه إلى النجاة. هناك قال المؤمن: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾، وهنا يقول الآخر: ﴿أَفِ لَكَ﴾. كأن السورة تعرض علينا مقياساً عجيباً لنضج القلب: ماذا صنعت معرفة الله بعلاقتك بمن أحسن إليك؟ فالإيمان الذي يسكن القلب حقاً لا يجعلك أقل وفاءً، بل أكثر إحساساً بالدين القديم الذي في عنقك لمن ربّيك.

ثم يكشف الابن أصل اعتراضه: ﴿اتَّعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾. حجته تبدو لأول وهلة مألوقة: لقد مات أناس كثيرون قبلي، فأين عادوا؟ وهي حجة نتكرر في كل عصر بصور مختلفة. يريد الإنسان أن يجعل عدم رؤيته للبعث دليلاً على عدم وقوعه، وكأن الوجود لا يحتوي إلا ما شاهدته عيناه. لكنه ينسى أنه نفسه خرج إلى الدنيا من عدم لم يشاهده، وأن الذي أنشأه أول مرة لا يعجزه أن يعيده. ويستغيث الوالدان: ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾. ما أحرَّ هذه العبارة حين تأتي من قلب أب أو أم. ليست الغاية أن ينتصرا عليه في جدال، ولا أن يثبتا أنهما أكثر معرفة منه؛ إنهما يريدان فقط ألا يخسراه في الآخرة. وقد يكون أشد العذاب على قلب المؤمن أن يرى إنساناً يحبه يبتعد عن الله ولا يملك أن يحمله إلى الهداية حملاً.

لكن الابن يحتوي بكلمة جاهزة: ﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. وهكذا تختصر النفس أحياناً قضية الوجود كلها في عبارة ساخرة ثم تمضي. لا تبحث، ولا تأمل، ولا تواجه السؤال حتى نهايته؛ يكفيها أن تضع على الحقيقة ملصقاً مريحاً ثم تغادر. كم من أفكار ضخمة أبعدت عن القلوب لا لأنها فُتدت، بل لأنها وُصفت بكلمة ساخرة: قديم، خرافة، رجعية، أسطورة. وليس الاسم برهاناً، ولا السخرية حجة.

حين يتحول الإصرار إلى مصير

ثم لا تبقى المسألة خلافاً عائلياً داخل بيت؛ تنتقل فجأة إلى ميزان الآخرة:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.

انظر إلى انتقال السورة من فرد يتأفف في بيت صغير إلى موكب هائل من الأمم التي مضت. الإنسان قد يتخيل أن موقفه الشخصي شيء محدود لا يتجاوز لحظته، لكن القرآن يضعه داخل تاريخ أخلاقي ممتد: هناك طريق قديم سار فيه المكذبون قبلك، وهناك نهاية قديمة تنتظر من يصير على الطريق نفسه. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾. والخسارة هنا ليست أن يفقد الإنسان مالاً أو منصباً أو فرصة من فرص الدنيا. تلك خسائر يمكن تعويض بعضها، وبعضها ينتهي أثره بالموت. الخسارة الحقيقية أن تنتهي الرحلة كلها ثم تكتشف أنك خسرت نفسك. أن تكون قد ربحت جدالات كثيرة، وحافظت على كبريائك، وربما نلت من الدنيا ما نلت، ثم وقفت في النهاية بلا شيء مما ينجيك.

كم تغير هذه الآية تعريف النجاح. قد يصف الناس إنساناً بالنجاح لأنه جمع، واشتهر، وصعد، وانتصر، لكن ميزان القرآن يسأل بعد كل ذلك: إلى أين انتهى؟ فالنجاح الذي ينتهي إلى النار خسارة مؤجلة، والخسارة التي تحمل صاحبها إلى الله قد تكون باباً إلى الفوز.

ليست الطرق عند الله سواء

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

كل خطوة محسوبة، كل اختيار يرفع أو يخفض. كل مقاومة للنفس تبني درجة، وكل استسلام مكرر للباطل يترك أثراً. الإنسان لا ينتقل فجأة من حال إلى حال؛ إنه يصنع مصيره قليلاً قليلاً، بقرارات تبدو أحياناً صغيرة جداً. ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾. ليس الناس عند الله كملة واحدة، كما أنهم ليسوا سواء في صدقهم ولا صبرهم ولا جهادهم ولا ظلمهم. هناك تفاصيل يعلمها الله لا يراها الناس. قد يقف شخصان في العمل نفسه،

ويختلفان عند الله بما في القلب، وبمقدار المجاهدة، وبحجم التضحية، وبالسر الذي لم يطلع عليه أحد.

ثم يأتي الاطمئنان الكبير: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. قد تضيع حقوقك في الأرض، وقد ينسب الناس إليك ما لم تفعل، وقد ينسبون إلى غيرك ما فعلت، وقد تمر أعمالك الجميلة بلا كلمة شكر، لكن هناك محكمة لا تضيع فيها التفاصيل. لا تنهار فيها الأدلة، ولا تؤثر فيها العلاقات، ولا ينسى القاضي شيئاً؛ لأن القاضي هو العليم العدل. ولهذا يستطيع المؤمن أن يعمل بعض الأعمال ثم يتركها لله. ليس ضرورياً أن يراها الجميع. ليس ضرورياً أن يذكر اسمه في كل خير صنعه. يكفي أن تكون هناك عين لا تنام، وذكرة لا تنسى، وميزان لا يميل.

حين يسمع الإنسان كلمةً مرعبة: أذهبت طياتكم

ثم يفتح القرآن فجأةً باباً على مشهد القيامة:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾. ما أثقل هذه العبارة. أيمن أن تنتهي النعم؟ أيمن للإنسان أن

يستهلك نصيبه من اللذات ثم يقف في الآخرة فارغ اليدين؟ نعم، حين يجعل الدنيا موطنه

الأخير، وينفق روحه كلها عليها، ويعيش للذة وحدها، ويستعمل نعم الله في الإعراض

عن الله. وليس معنى الآية أن الطيبات محرمة، فقد أباح الله لعباده الطيبات، ولكن

الرعب في أن تتحول النعمة من وسيلة إلى غاية، وأن يصبح الإنسان عبداً لما يستمتع به. أن

يأكل ولا يسأل من أطعم، وأن يسكن ولا يشكر من آوى، وأن يصح جسده فيستعمل

صحته في البعد، وأن يتسع رزقه فيزداد به كبراً.

الدنيا ليست مذمومة لأنها جميلة، بل لأنها خطيرة حين توهمك أن جمالها دائم. هي كدار

ضيافة فاخرة؛ الحكيم ينتفع بها ثم يمضي، والأحمق ينسى الطريق لأنه أعجبه أثاث الغرفة. ثم

تقول الآية: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾. ولماذا الهوان على وجه الخصوص؟ يأتي

الجواب: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. من رفع نفسه في الأرض فوق

موضعها يلقي يوم القيامة ما يكسر ذلك الوهم كله. الكبر محاولة بشرية لتضخيم الذات،

والآخرة يوم تظهر فيه الأجام الحقيقية.

وما أغرب الإنسان حين يتكبر، وهو يحمل في جسده أسباب عجزه كلها. يحتاج إلى الهواء كل لحظة، وإلى الماء كل يوم، وإلى النوم كل ليلة، ويمكن لجراثيمه لا يراها أن تطرحه في فراشه، ثم يمشي على الأرض كأنها ملكة! ولذلك لا يحتاج الكبر إلى حجة لرده، يكفي أن يتذكر الإنسان نفسه: من أين جاء، وما الذي يحمله في جوفه، وإلى أين ينتهي جسده.

والآن... اخرج من المدينة إلى الأحقاف

ثم تأتي اللحظة التي تحمل السورة اسمها. بعد الحديث عن الكتاب، والبعث، والوالدين، والكبر، والخسارة، تقول لك: تعال وانظر إلى الأرض نفسها؛ فهناك رمال تحفظ درساً لم تستطع القرون أن تحوه.

﴿وَإِذْ كَرَّ آخَا عَادُ إِذْ أُنْذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

هنا يظهر هود عليه السلام في مشهد واسع بين الرمال. قوم عاد، القوة التي كانت ترى نفسها أكبر من أن تغلب، والحضارة التي ظنت أن عضلاتها قادرة على مواجهة المستقبل، يقف في وسطها رسول يقول كلمة واحدة تعود إليها كل الرسائل:

﴿إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

ليس التوحيد تفصيلاً بين تفاصيل الرسالة. إنه مركزها. لأن السؤال عن المعبود هو في الحقيقة سؤال عن مركز الحياة: من الذي تخضع له؟ من الذي تخشاه؟ من الذي ترجوه؟ من الذي يملك أن يقول لك افعل ولا تفعل؟ وما الذي تقدم رضاه إذا تعارض مع كل شيء آخر؟ ثم يقول هود: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾. ما أرق قلب النبي وهو يخاطب قوماً يكذبونه. لم يقل: أخاف منكم. قال: عليكم. إنه يرى الخطر يتجه إليهم، فيحزن عليهم. وهكذا تكون الدعوة حين تخرج من القلب: لا تمنى سقوط المخالف، بل تمنى نجاته، حتى وهو يجرحك.

حين يطلب المكذب أن يأتيه العذاب

لكنهم قابلو الخوف عليهم بالتحدي:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

كم يتكرر هذا المنطق في التاريخ: حين يعجز الإنسان عن رد الهجة، يحول القضية إلى تحدٍّ. اتنا بالعذاب. كأن تأخر العقوبة دليل على أنها لن تأتي، وكأن حلم الله عجز. وهنا خطر

عظيم: أن يعتاد الإنسان المهلة حتى يظنها أماناً. يفعل الشيء مرة فلا يحدث له شيء، ثم يعيده، ثم يعيده، حتى يدخل إلى نفسه وهم خطير: لو كان هذا الطريق مهلكاً لهلك منذ البداية. وينسى أن الله يمهّل، وأن التأخير ليس إلغاءً للحساب. قال هود:

﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَعْلَمُونَ﴾.

يا لجمال حدود النبوة: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾. لا يدعي الرسول ما ليس له. لا يعرف توقيت العذاب من عند نفسه، ولا يملك خزائن الغيب. مهمته واضحة: ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾. وهذا درس حتى للعالم والداعية والمفكر: لا ينبغي أن يخجل الإنسان من أن يقول: لا أعلم. فالحد الفاصل بين العلم والادعاء جزء من الأمانة، ليس مطلوباً منك أن تعرف كل شيء، بل أن تكون صادقاً فيما تعرف.

السحابة التي حسبوها رحمة

ثم يأتي أحد أكثر مشاهد السورة رهبةً وجمالاً:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ارفع بصرك إلى المشهد. أرض تنتظر المطر. أودية يابسة. ثم يظهر في الأفق عارض من السحاب متجه نحوهم. وتحرك القلوب بالفرح: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا﴾. إنهم يرون الرحمة قادمة. لكن الحقيقة:

﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾.

يا له من انقلاب مرعب للمعنى. الشيء نفسه الذي ظنوه ماءً كان يحمل الهلاك. والمنظر الذي استبشروا به كان بداية النهاية. وهذه الآية تعلم القلب ألا يحاكم الأشياء كلها من ظاهرها. ليست كل سحابة رحمة، كما أن ليست كل محنة هلاكاً. كم من شيء أقبل على الإنسان فكرهه، ثم كان وراءه نجاته. وكم من شيء استقبله مسروراً، ثم اكتشف بعد سنين أنه كان باباً إلى تبعه. نحن نرى الواجهة، والله يعلم المآل. ولهذا يحتاج المؤمن دائماً إلى الله حتى في الأشياء التي يحبها. لا يكفي أن تقول: هذا جميل، إذن هو خير لي. بل تقول: يا رب، إن كان خيراً فبارك لي فيه، وإن كان شراً فاصرفه عني. لأنك لا تعرف ما الذي يختبئ خلف السحابة.

ثم يكشف القرآن طبيعتها:

﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ريح. لا جيش. لا سلاح. لا قوة يظنون أنها تنافس قوتهم. مجرد شيء كانوا ينتفسون مثله كل يوم. وهنا يظهر سلطان الله بصورة تخلع الغرور من جذوره. فالإنسان قد يبني أقوى الأسوار، ثم يأتيه أمر الله من شيء لم يضعه في حسابه. قد يحسب حساب الأعداء، ولا يحسب حساب الريح. وقد يخاف القوى الكبرى، وينسى أن الكون كله جند لله.

حين تتحول القوة التي لا تُرى إلى نهاية حضارة

﴿تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

قف عند: ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾. الريح لا تنصرف من ذاتها. الطبيعة في القرآن ليست إلهاً مستقلاً، ولا قوة عمياء خرجت عن سلطان خالقها. إنها مخلوقة تمضي بأمر ربها. ولذلك لم تكن القضية أن الريح أقوى من عاد فقط، بل أن عاد اصطدمت بإرادة من خلق عاد والريح معاً. ثم تأتي الصورة الأخيرة في غاية الإيجاز: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ﴾.

يا لله. أين الرجال الذين قالوا: من أشد منا قوة؟ أين الأصوات؟ أين التحدي؟ أين الغرور؟ أين الذين كانوا يملأون المكان حضوراً؟ اختفوا. وبقيت البيوت. كأن المساكن صارت شواهد قبر لحضارة كاملة. وهذه من أكثر صور القرآن قدرة على تهذيب وهم الإنسان، فنحن نبي المساكن ونظن ضمناً أننا باقون، لكن التاريخ ممتلئ بمساكن بقيت بعد أصحابها. قصر كان صاحبه يملأه أوامر، ثم صار أثراً يصوره الغباء. غرفة كان شخص يبكي فيها ويضحك ويخبط، ثم أصبح يسكنها غيره. الدنيا لا تحتفظ بأحد.

﴿لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ﴾.

إنها عبارة تصلح أن تكتب على أبواب الغرور كلها. كل قوة لا تتواضع لله ستعلم يوماً، بطريقة ما، أنها عابرة.

لم يكونوا أمةً ضعيفة

ثم يقطع القرآن آخر عذر يمكن أن يخطر في النفس: ربما هلكوا لأنهم كانوا ضعفاء، أو لأن حضارتهم لم تكن متقدمة. فيقول:

﴿وَلَقَدْ مَكَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَارًا وَافْتَدَاهُ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْتَدَتْهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿مَكَّاهُمْ﴾.

كانت لديهم أسباب القوة. وكان لديهم السمع والأبصار والافتداه؛ أدوات المعرفة كاملة. لم يكونوا بلا عقل، ولا بلا إمكانات، ولا بلا قدرة على النظر. لكن المشكلة لم تكن في فقدان الأدوات. كانت في الوجهة التي استعملت فيها الأدوات. وهذه آية شديدة الصلة بعصرنا؛ فقد يزداد الإنسان معلومات ولا يزداد بصيرة. يمكن أن تتسع الشاشات وتضيق الرؤية. ويمكن أن تصل الأخبار إلى كل مكان، ويبقى القلب بعيداً عن الحقيقة. ويمكن للبشرية أن ترى المجرات البعيدة بأجهزة مذهلة، ثم تعجز عن رؤية فقرها الداخلي.

السمع وحده لا يهدي. والبصر وحده لا يهدي. والعقل إذا استكبر قد يتحول من طريق إلى الحقيقة إلى آلة لتبرير الهروب منها. ولهذا قال: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْتَدَتْهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾. هناك لحظة يصبح فيها العلم بلا هداية عبثاً؛ لأن الإنسان لا يعود جاهلاً فقط، بل يصبح قادراً على صناعة حجج متقنة لتبرير ضلاله. ثم تأتي النهاية التي تتردد في السورة منذ أولها:

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

ما كانوا يضحكون منه صار محيطاً بهم. وما جعلوه مادة للسخرية أصبح واقعهم. وهكذا تنقف سورة الأحقاف عند أطلال عاد لتقول للإنسان المعاصر: لا تغتر بما بين يديك. ليست الحضارة ضماناً للهداية، وليست القوة عقداً ضد السقوط، وليست كثرة المعرفة عصمة من العمى. إنما النجاة حين تعرف من أعطاك السمع والبصر والفؤاد، ثم تستعملها لتصل إليه. ومن رمال الأحقاف ستأخذنا السورة بعد ذلك إلى حلقة أوسع من المدن التي أهلكك حول مكة، ثم ستسأل سؤلاً قاسياً عن الآلهة التي لم تتقد أصحابها، قبل أن يحدث تحول مدهش في المشهد: أصوات من عالم آخر تسمع القرآن، فتفهم في لحظات ما عجز المكابرون عن فهمه في سنوات. هناك سنتقتي نفراً من الجن مروا بالنبي ﷺ وهو يقرأ، فقال بعضهم لبعض كلمة تكاد تختصر أدب الاستماع كله:

﴿أَنْصِتُوا﴾.

بعد أن تركتنا السورة أمام مساكن عاد الخالية، وأرتنا كيف يمكن لقوة كاملة أن تتحول إلى أثر، توسع الدائرة قليلاً، فلا تبقى العبرة محصورة في الأحقاف وحدها:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.
﴿مَا حَوْلَكُمْ﴾.

كأن القرآن يقول لمخاطبيه: لستم بحاجة إلى السفر بعيداً كي تروا مصير المكذبين؛ آثارهم حولكم، وأخبارهم في طرقكم، وذكرهم في مجالسكم. التاريخ ليس وراء سور بعيد، بل يمر الإنسان أحياناً بجانب شواهد ثم لا يعتبر. والعجيب أن البشر يستطيعون الوقوف أمام الخرائب، والتقاط الصور، والانهار بعظمة البناء، ثم يغادرون دون أن يسألوا السؤال الأهم: أين الذين بنوا كل هذا؟ قال الله: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾. لم تكن الإشارة واحدة. تنوعت الدلائل، وتعددت طرق التنبيه، وجاءتهم الحجّة من أكثر من باب. في الكون آية، وفي النفس آية، وفي التاريخ آية، وفي الوحي آية، وفي الموت الذي ير أمامهم آية. كل شيء كان يقول لهم: ارجعوا.

ولهذا جاءت الغاية: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. ما أرحم هذه الكلمة. لم تكن الآيات لتدفعهم إلى الهلاك، بل لتردهم عنه. حتى الإنذار في جوهره رحمة؛ لأن من يخبرك بوجود الهاوية قبل أن تصل إليها لا يريد إخافتك لذاتها، بل يريد إنقاذك منها. الله يفتح للإنسان أبواب الرجوع مرات، ويبعث إليه الإشارات مرات، ويوقظه بالأحداث مرات، وكل ذلك قبل أن تأتي اللحظة التي لا ينفع فيها الرجوع. كم من موقف في حياتنا ربما لم يكن مجرد حادثة عابرة. مرض أيقظ القلب، أو موت قريب أعاد ترتيب الأسئلة، أو خسارة كسرت شيئاً من الغرور، أو كلمة قرآنية جاءت في اللحظة التي كان القلب يحتاجها. نحن نسمي أشياء كثيرة «مصادفات»، وربما كانت في ميزان تربيتنا رسائل رحمة تقول لنا: ارجع.

الآلهة التي تختفي ساعة الحاجة

ثم تسأل السورة سؤالاً يفضح العجز كله:

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

أين ذهبت الآلهة ساعة الهلاك؟ أين كانت حين جاءت الريح؟ أين كانت حين سقطت القرى؟ أين كان الذين تعلقت بهم القلوب، وقُدمت لهم القرابين، وخصوا بالخوف والرجاء؟

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾.

اختفوا في اللحظة التي كان يجب أن يظهروا فيها إن كانوا يملكون شيئاً. وهذه قاعدة عميقة في كل تعلق باطل: قد يبدو قوياً ما دام الإنسان في فسحة، فإذا نزلت الشدة انكشف حجمه الحقيقي. المال نافع، لكنه لا يستطيع أن يمنع الموت. الناس سند، لكنهم لا يستطيعون حمل القضاء عنك. المعرفة نافعة، لكنها لا تجيب وحدها عن قلق المصير. القوة مفيدة، لكنها لا تستطيع ضمان اللحظة التالية. وفي داخل الإنسان ميل خفي إلى صناعة «آلهة صغيرة» من الأشياء التي يحبها؛ لا يسجد لها بجهته، لكنه يمنحها من قلبه ما لا ينبغي أن يمنحه إلا الله. قد يجعل قيمته مرهونة برأي الناس، فيصبح مدحهم جنته وذمهم بحيمه. وقد يجعل أمنه كله في المال، فإذا نقص المال انهار. وقد يجعل نجاته في شخص، فإذا غاب الشخص ضاع.

ثم تأتي الحقيقة يوم الامتحان:

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾.

كل شيء لا يملك لنفسه بقاءً لا يستطيع أن يكون لك إلهاً.

ثم يحدث شيء لم يكن في حساب أهل مكة

وبعد كل ذلك الصخب، يحدث انتقال مدهش في السورة. لا قوم عاد، ولا المشركون، ولا الأسواق، ولا الجدل. هناك ليل هادئ، ورسول يقرأ القرآن، ومخلوقات من عالم لا تراه أعيننا تمر فتسمع:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّندِرِينَ﴾.

قف عند أول المشهد:

﴿صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾.

ليس اللقاء عشوائياً في ميزان الله. هناك تدبير لا تراه العين. نفر من الجن يُصرفون إلى موضع يسمعون فيه القرآن، وفي اللحظة التي كان بشر قريبون من الرسول يعاندونه، يفتح الله

للقرآن آذاناً من عالم آخر. يا لها من تسلية للنبي ﷺ، ويا لها من قاعدة للداعية إلى الحق: لا تقيس قيمة الكلمة بعدد الذين استجابوا لها أمامك. ربما يرفضها من ظننت أنه أقرب الناس إلى فهمها، ويفتح الله لها قلباً لم يكن في حسابك أصلاً. إنك لا تعرف أين تقع الكلمة بعد أن تخرج صادقة.

ثم جاء أديهم الأول:

﴿قَالُوا أَنْصِتُوا﴾.

كلمة واحدة، لكنها تفتح باباً كاملاً في فهم العلاقة بالقرآن. لم يقولوا: تكلموا. لم يقولوا: ناقشوا. قالوا: أنصتوا. فأحياناً يكون أول ما يحتاجه القلب أمام الوحي أن يصمت. ليس الصمت عجزاً عن التفكير، بل إفساح مكان للكلام الأعظم. نحن نعيش في زمن أصبح فيه الإنسان مستعداً للتعليق على كل شيء قبل أن يسمعه كاملاً. يقرأ سطراً فيحكم، ويسمع جزءاً فيقاطع، ويدخل إلى القرآن ومعه أجوبة جاهزة أكثر مما معه أسئلة صادقة. أما هؤلاء الجن فقد عرفوا بالفطرة الأدب الأول للقاء الوحي: أنصتوا.

كأنها تقول لنا: لا يمكن أن يمتلئ القلب بكلام الله وهو ممتلئ بصوته هو. وفي الإنصات معنى أعمق من السماع؛ فقد يسمع الإنسان الصوت ولا ينصت للمعنى. تمر الآيات على أذنه، بينما فكره في مكان آخر. أما الإنصات فهو أن تجمع نفسك عند الكلمة، وأن تمنحها حضورك، وأن تسمح لها أن تسألك لا أن تظل أنت وحدك من يسألها.

قرآن صنع منهم دعاة في جلسة واحدة

ثم قال الله:

﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾.

ما أسرع التحول. جاءوا مستمعين، ورجعوا منذرين. لم يحتاجوا سنوات طويلة حتى يشعروا أن ما سمعوه أمانة. حين يدخل الحق إلى القلب حقاً، ينشأ معه شعور طبيعي بأن هذا النور ليس ملكاً شخصياً. الذي وجد ماء في صحراء لا يحتفظ بخبر الماء لنفسه إذا كان قومه عطاشى. وفي قوله: ﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ معنى جميل جداً. أول وجهة بعد الهداية كانت قومهم. لم تجعلهم المعرفة يحرقون بيثتهم، بل حملتهم مسؤوليتها. عادوا إلى الذين يعرفونهم، إلى مجتمعهم، إلى محيطهم، يحملون إليهم ما سمعوا.

وهنا ميزان لطيف للعلم والهداية: هل تجعلنا أكثر شعوراً بالناس أم أكثر انفصلاً عنهم؟ هل تزيد فينا الرحمة أم تمنحنا مجرد إحساس بالتفوق؟ هؤلاء الجن لم يقولوا: لقد أصبحنا أفضل من قومنا. بل حملوا همَّ إنقاذهم.

يا قومنا... إنا سمعنا كتاباً

ثم ينقل القرآن كلامهم:

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.
﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾.

كانت البداية سماعاً صادقاً، ثم ماذا رأوا في القرآن؟

﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

لم يقولوا: سمعنا كتاباً عجيب الأسلوب فقط، مع أن القرآن عجيب البيان. ولم يقفوا عند جمال النظم. لقد تجاوزوا الجمال إلى الوظيفة الكبرى: الهداية. فالقرآن ليس كتاباً ليتزين به الرف، ولا مادة لإظهار البلاغة، ولا نصاً مقدساً نحسن تلاوته ثم تبقى خرائط حياتنا كما هي. إنه يهدي. أي ينقلك من مكان إلى مكان، ومن فهم إلى فهم، ومن وجهة إلى وجهة. إذا قرأ الإنسان القرآن طويلاً ولم يتغير في شيء، فعليه أن يسأل نفسه: هل كنت أقرأ حقاً، أم كنت أمر على الكلمات دون أن أسمع لها أن تقودني؟

والهداية هنا مزدوجة: ﴿إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. الحق معرفة، والطريق حركة. فلا يكفي أن تعرف الحق ثم تبقى في موضعك. المعرفة التي لا تتحول إلى طريق قد تصبح حجة على صاحبها. كم من إنسان يعرف الصواب في علاقاته، ثم لا يسلكه. يعرف حق الوالدين، ويؤجل البر. يعرف ضرر ذنب، ويؤجل التوبة. يعرف فضل الصلاة، ويؤجل الخشوع. يعرف أن العمر قصير، ثم يعيش كما لو كان طويلاً. القرآن لا يريد فقط أن يقول لك أين الطريق. يريدك أن تمشي.

أجيبوا داعي الله

ثم ترتفع نبرة الدعوة:

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرُكَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

انظر إلى التعبير:

﴿دَاعِيَ اللَّهِ﴾.

النبي يدعو، لكن الدعوة لله. الرسالة ليست مشروعاً شخصياً للنبي، ولا محاولة لصناعة أتباع حول ذاته. إنه يدعوهم إلى ربهم. ثم: ﴿أَجِيبُوا﴾. فالإيمان إجابة. كأن الإنسان منذ وُجد يسمع نداءً في أعماق الوجود: من خلقك؟ إلى أين تمضي؟ لماذا أعطيت هذا القلب؟ ماذا ستفعل بهذا العمر؟ والوحي يأتي ليجعل النداء واضحاً. والمؤمن ليس مجرد إنسان امتلك معلومات دينية أكثر، بل إنسان أجاب. قال له الله: تعال. بقاء. قال له: تب. فتاب. قال له: استقم. فاول. قال له: لا تخف إلا مني.

فجاهد خوفه. إن الإيمان في جوهره علاقة استجابة. ثم تأتي الجائزة الأولى:
﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾.

ما أسرع القرآن في فتح باب المغفرة. لم يقل لهم: أنتم من عالم آخر، وقد تأخرتم. بل ما إن قالوا آمنوا حتى ظهرت المغفرة أمامهم. وهذا أحد أجمل الوجوه في القرآن: أن الطريق إلى الله لا يبدأ باستعراض ماضيك أمام الناس، بل بصدق رجوعك إلى الله.

ومن لا يجب داعي الله؟

﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.
﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾.

أين سيذهب؟ هذه الأرض كلها لله. يمكن للإنسان أن يهرب من مدينة إلى مدينة، ومن دولة إلى دولة، ومن سلطة إلى سلطة، لكن لا توجد زاوية في الكون تقع خارج ملك الله. والمفارقة أن الإنسان قد يقضي حياته هارباً من الله وهو يعيش بنعم الله: يتنفس هواءه، يأكل رزقه، ويمشي على أرضه، ويستظل بسمائه، ثم يتصور أنه يستطيع أن يكون مستقلاً عنه. حتى جسدك الذي تعصي الله به ليس ملكاً خالصاً لك. قلبك ينبض دون إذنك، وريثك تعملان وأنت نائم، وأجهزتك الداخلية تواصل حياتك دون استشارة منك. نحن محاطون بالعجز من داخلنا، ثم تأتي النفس لتتوهم الاستغناء.

لذلك كان التعبير دقيقاً:

﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾.

ليس المطلوب أن تبحث عن مكان تختبئ فيه من الله، بل أن تبحث عن باب تعود منه إليه.

والسمااء التي خلقها أول مرة

بعد الحديث عن عاد والجن والإنذار يعود القرآن إلى القضية التي ظل المنكرون يهرون منها:
البعث.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ما أبسط الحجّة وما أعظمها. أنت تستبعد أن يعيد الله جسداً صغيراً بعد موته، ثم ترفع بصرك إلى سماء هائلة خلقها الله أول مرة! من صنع الأعظم لا يعجزه ما تراه أنت أعجب.
﴿وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ﴾.

لم يصبه تعب. ولم تنقص قدرته. فالخلق ليس معركة يخوضها الله ثم يستنزف فيها قوة. سبحانه. إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يكون. ومع ذلك، فإن الإنسان حين ينظر إلى جسد يتخلل في التراب يشعر باستبعاد العودة. لأنه يقيس قدرة الخالق على قدرته هو. وهذه واحدة من جذور كثير من الشبهات: أن يتخيل الإنسان الله داخل حدود التجربة البشرية. أنا لا أستطيع أن أعيد الميت، إذن كيف يعود؟ أنا لا أرى الآخرة، إذن كيف توجد؟ لكن الإيمان يبدأ حين تعرف الفرق بين العبد والرب.

أنت عاجز. هو ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

السؤال الذي سيأتي متأخراً جداً

ثم نتقلنا السورة مباشرة إلى يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟﴾

السؤال نفسه الذي أمضوا الدنيا يهرون منه. لكن الفرق أن زمن الاختيار قد انتهى. قالوا:

﴿بَلَىٰ وَرَبَّنَا﴾.

أخيراً ظهر اليقين. لكن يا لحسرة يقين جاء بعد فوات العمل. وهنا درس شديد القسوة والوضوح: ليست القضية أن يعرف الإنسان الحقيقة يوماً ما. سيعرفها الجميع. القضية متى يعرفها. هناك معرفة تنجي لأنها جاءت في زمن الاختيار. وهناك معرفة لا تنجي لأنها

جاءت بعد انكشاف الغيب. كل البشر سيصلون في النهاية إلى اليقين. لكن السعيد هو من آمن قبل أن يصبح الإيمان مشاهدة. إن أعظم قيمة للحياة الدنيا أنها المسافة القصيرة التي يستطيع الإنسان فيها أن يختار، وأن يرجع، وأن يقول «آمنت» وهو ما يزال قادرًا على أن يقول غير ذلك.

ولهذا كانت اللحظة الحالية أثنى مما نظن. ما دام القلب ينبض، فالباب مفتوح. ما دمت تستطيع أن تقول: يا رب، فقد بقي شيء يمكن إصلاحه. أما هناك، أمام النار، فستصبح الحقيقة واضحة جدًا، لكن الوضع وحده لن يعيد الزمن.

اصبر كما صبر أولو العزم

ثم، بعد هذا المدى كله، تعود السورة في خاتمتها إلى النبي ﷺ، إلى ذلك القلب الذي حل كل هذه الرسالة وسط التكذيب:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

وهنا تصل السورة إلى قلبها الأخير:

﴿فَاصْبِرْ﴾.

بعد كل الحجج. بعد قصة عاد. بعد الريح. بعد الجن. بعد مشاهد القيامة. يأتي الأمر الذي يحتاجه حامل الحق في الطريق: اصبر. فالحق لا ينتصر دائمًا في اللحظة التي تريدها. والباطل لا يسقط دائمًا في الساعة التي تتوقعها. والدعاء لا تأتي إجابته دائمًا بالصورة التي رسمتها. والقلوب لا تنفتح كلها من أول كلمة. فاصبر. ولكن ليس أي صبر:

﴿كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

انظر خلفك إلى القافلة. لست أول من طال عليه الطريق. نوح دعا قرونًا. وإبراهيم ألقى في النار. وموسى وقف أمام فرعون. وعيسى أؤذي وكذب. ومحمد ﷺ حمل من أذى قومه ما حمل. الطريق الذي تدخل فيه من أجل الله سبقك إليه رجال دفعوا أعمارهم كاملة ثم لم يندموا. وهذا من أعظم ما يعين القلب على الصبر: أن يدرك أنه ليس وحده في التاريخ.

ولا تستعجل لهم

﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾.

الإنسان إذا رأى الظلم يتكرر قد يتخفى أن تأتي النهاية فوراً. وإذا رأى الباطل يعلو سأل: إلى متى؟ لكن ميزان الله لا تحكمه أعصابنا المتعبة. هو يرى الصورة كلها. يعلم متى يعطي. ومتى يمنع. ومتى يمهل. ومتى يأخذ. والاستعجال كثيراً ما يولد من أننا نرى اللحظة ولا نرى السياق الكامل. أما الله فيرى أول الطريق وآخره في علمه. ثم تأتي العبارة التي تصغر الدنيا كلها:

﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾.

ساعة. كل هذا العمر الذي بدا طويلاً. كل السنوات. كل الصراعات. كل الانتظار. كل الآلام التي ظن الإنسان أثناءها أنها لن تنتهي. حين يقف أمام الأبد، تبدو كساعة من نهار. وهنا تعيد السورة ترتيب إحساسك بالزمن. نحن نضخم الحاضر لأننا نعيش داخله. الساعة المؤلمة تبدو طويلة، والسنة القاسية تبدو بلا نهاية. لكن حين توضع الدنيا كلها بجوار الآخرة يتغير الحجم. كم من أمر يملأ قلبك اليوم سيبدو بعد سنوات صغيراً. فكيف سيبدو حين تقف على عتبة الأبد؟

ثم تأتي كلمة واحدة:

﴿بَلَاغٌ﴾.

كأن السورة كلها بعد هذه الرحلة الطويلة تتجمع في هذه الكلمة. هذا القرآن بلاغ. وصلتك الرسالة. رأيت السماوات والأرض. وسمعت الحجة. ورأيت الأم تحمل ولدها كرهاً. ورأيت الإنسان يبلغ الأربعين فيسأل الله الشكر. ورأيت ابناً يعق والديه ويكذب بالبعث. ومررت بأطلال عاد. وشاهدت السحابة التي ظنوها مطراً فإذا هي عذاب. وسمعت الجن يقول بعضهم لبعض: ﴿أَنْصِتُوا﴾. ورأيت القيامة حين يقول المكذبون: ﴿يَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾. ثم قيل لك في النهاية:

﴿بَلَاغٌ﴾.

لقد وصلت الرسالة. ويبقى السؤال الذي لا تستطيع السورة أن تجيب عنه بدلاً منك: ماذا ستفعل بها؟

حين تنتهي السورة وتعود بعينيك إلى بدايتها تكتشف أنها بنت في القلب مساراً كاملاً. بدأت بـ ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، وانتهت بـ ﴿بَلَاغٌ﴾. كأن كل ما بينهما هو الرحلة التي تقطعها الكلمة النازلة من السماء حتى تقف أمام قرار الإنسان. في أولها قيل لك إن السماوات والأرض خلقت بالحق، وفي آخرها يُسأل المكذبون أمام النار: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾. فالحق الذي رفضوه في أول الطريق وجدوه ينتظرهم في آخره. وفي وسط السورة مر بنا الإنسان في عمره كله: جنيئاً تحمله أمه كرهاً، وطفلاً يفطم، ورجلاً يبلغ أشده، وإنساناً يبلغ الأربعين، وأباً ينظر إلى ذريته، ثم ميتاً سيعث بين يدي الله. ما أقصر المسافة حين يضعها القرآن في آية.

ومر بنا التاريخ كله في صورة مساكن خالية:

﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ﴾.

تلك ربما أوجع جملة في السورة عن الدنيا. فالذين كانوا يملؤون المكان اختفوا، وبقي المكان. لا تجعل أكبر مشروع في حياتك أن تترك بيتاً بعدك. بل اترك عملاً يصل قبلك إلى الآخرة. ولا تجعل غاية العمر أن يعرف الناس اسمك. بل أن يعرف الله منك قلباً صادقاً. ولا تجعل قوتك فيما تملك. فقوم عاد ملكوا من القوة ما أغراهم بالسؤال: من أشد منا قوة؟ ثم جاءت ريح. فصاروا خبراً.

وحين تغلق السورة بابها

إذا خرجت من سورة الأحقاف بشيء واحد، فليكن هذا: لا تتحدثك المظاهر. قد ترى سخابة فتظنها مطراً، وهي تحمل شيئاً آخر. وقد ترى حضارة قوية فتظنها خالدة، ثم تصبح مساكن فارغة. وقد ترى إنساناً بسيطاً يستمع للقرآن فتفتح له كلمة واحدة أبواب الهداية. وقد ترى آخر يملك السمع والبصر والفؤاد فلا تغني عنه أدواته شيئاً؛ لأنه قرر ألا يرى. وقد تصل إلى الأربعين وقد ملأت الدنيا حولك، ثم تكتشف أن أجمل ما يمكنك حمله إلى بقيتها دعاء:

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾.

وإذا خفت على أبنائك فقل:

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾.

وإذا ثقل ماضيك فقل:

﴿إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ﴾.

وإذا طال عليك الطريق فاسمع خاتمة السورة:

﴿فَاصْبِرْ﴾.

وإذا شعرت أن الباطل طال بقاءه، فتذكر:

﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾.

إن الحياة كلها، حين توضع إلى جوار الأبد، أقصر مما تتخيل. فلا تنفق قلبك كله على شيء سيصبح بعد قليل ذكري. ولا تعطِ خوفك الكامل لمخلوق سيموت. ولا تجعل رأي الناس فيك أثقل من علم الله بك. ولا تؤجل العودة؛ فقد جاءت السورة كلها لتقول لك إن الطريق إلى الله مفتوح الآن، لكن «الآن» نفسه ليس خالداً. مرّت الريح على الأحقاف، وسكنت الأصوات، وبقي القرآن يروي القصة. وستمّر الريح يوماً على كل ما نظنه ثابتاً في حياتنا. ويبقى السؤال: أي شيء فينا يستحق أن يبقى عند الله؟

تَمَّ بِحَمْدِ اللَّهِ

